

حقيقة الأيقونات المسيحية في كنيسة المشرق في المصادر التاريخية

الشماس جورج ايشو

المقدمة

قبل أكثر من سنتين كنت قد نشرت مقالاً تناولت فيه موضوع "حقيقة الأيقونات المسيحية في كنيسة المشرق". كان هدفي منه اثبات بالأدلة التاريخية- المدنية والكنسية- على ان الأيقونات المسيحية كانت موجودة ومتأصلة في عمق الفكر المسيحاني لكنيسة المشرق وذلك منذ عصور خلت. والآن وبعد مرور سنتين على ذلك المقال، نشر الاب تاور اندريوس، كاهن كنيسة المشرق الإثورية، بحثاً أكاديمياً منشوراً في مجلة بيت كوكي في عددها الخامس تحت عنوان " لأدلة التاريخية على وجود الصور في كنيسة المشرق " Historical evidences of the existence of the " Images in the Church of the East " وهو باللغة الانكليزية. من خلال هذا البحث، استطاع الاب اندريوس ان يسلط الضوء على اهم المصادر التاريخية التي تثبت بوضوح تام بان كنيسة المشرق كانت من اوائل الكنائس التي زيتت جدران كنائسها بالرسومات المسيحية. وبما ان المقال الذي نشرته قبل سنتين يتناول الموضوع نفسه، فكرتُ بنشر المقال مرة اخرى، لكن بعد اضافة عدد اخر من المصادر التاريخي التي بحوزتي، وايضا اقتباس البعض الاخر من مقالة الاب اندريوس، وذلك لتعم الفائدة على الجميع.

حقيقة الأيقونات المسيحية في كنيسة المشرق في المصادر التاريخية

ان الجدل حول استخدام الأيقونات او الرسومات المسيحية داخل الكنيسة كان وما زال مستمراً بين المؤيدين والمعارضين. فقد دخلت الكنيسة منذ عصور خلت في جدالات حادة مع الذين عارضوا استخدام الأيقونات داخل الكنيسة. غير ان حدة ذلك الجدل تفاقم بشكل كبير في العالم الغربي وبالتحديد في القرن الثامن الميلادي حينما اصدر الامبراطور ليو الثالث مرسوماً دعى فيه إلى عدم السجود للأيقونات واخراجها من حضان الكنيسة. وقد اسفر ذلك المرسوم عن مقتل الكثير من مؤيدي الأيقونات والذين عرفوا بعد ذلك بشهداء الأيقونات. لكن على الرغم من ذلك، لم يمنع ذلك الاضطهاد ان تظهر شخصيات لاهوتية دافعت بشدة عن استخدام الأيقونات داخل وخارج الكنيسة. فعلى سبيل المثال، ظهر ابان تلك الفترة يوحنا الدمشقي الذي اقدم على تكريس ثلاث مؤلفات كاملة اثبت فيها صحة إكرام الأيقونات وشجب المرسوم الإمبراطوري بشدة. ساهمت منشوراته في هذا الخصوص بازدياد شعبيته بشكل كبير ليس فقط لأنه عارض الإمبراطور بل أيضاً بسبب أسلوب كتابته الأدبي البسيط الذي كان مفهوماً لدى عامة الناس مما أدى إلى تصاعد الجدل في الموضوع. وبسبب الثقة التي زرعتها وسط الكنيسة، التف حوله بعض المؤمنين ليحرضوا عامة الشعب المسيحي على التمرد ضد مرسوم تحطيم او ازال الت الأيقونات من الكنائس. والسبب وراء هذا العصيان الذي اقدم عليه يوحنا وغيره من المدافعين يعود ببساطة الى اعتقادهم بان الأيقونة تُساعد المؤمن على بنیان إيمانه وتوسع معرفته في السلوك المسيحي. اذ تُعتبر أمثلة حية وبسيطة يتعلم منها جميع المؤمنين دون تمييز بين لسان ولسان، يُترجمها الأمي بلغة بسيطة، كمن يقرأ كتاب أو يسمع عظة، ويلتمس فيها المتعلمون والمثقفون ما تعجز المؤلفات من الإفصاح عنه. و تعتبر ايضا وسيطاً روحياً داخل الكنيسة. اذ بإمكانها ان تجمع الفكر المتشتت داخل ذلك الاطار الصغير موجهة اياه الى منحى روحاني عميق ليتصل دون انقطاع بالمشاعر الروحانية الصافية. لذلك حرصت الكنائس جميعها دون استثناء على استخدام الأيقونات داخل هياكل الكنيسة. غير ان المفاهيم العقائدية والعبادات الطقسية بخصوص الأيقونات تختلف بين كنيسة وكنيسة، اذ على سبيل المثال الكنائس الأرثوذكسية تدرجها ضمن عبادتها الطقسية وهذا ما ترفضه بعض الكنائس .

مهما يكن من امر، نحن لسنا بصدد تقديم تفسير شامل عن الأيقونات الكنسية، فهناك مواقع وكتب كثيرة تتكلم بهذا الخصوص، ما نريده في الحقيقة هو ان نتساءل عن ما اذا كانت كنيسة المشرق قد استخدمت الأيقونات في هياكلها ام لا- لأنه من الواضح بانها الكنيسة الوحيدة بين الكنائس الرسولية التي لا تعترف او لا تستخدم الأيقونات في كنائسها. فهل هناك سند او مصدر تاريخي يؤيد هذا الموقف المعارض تجاه استخدام الأيقونات، ام ان الموقف لا يعتبر إلا حالة استثنائية خضعت الكنيسة لها قبلاً وذلك لتجنب سوء الفهم؟ وان كان كذلك فهل هذا يعني بان الكنيسة كانت تستخدم الأيقونات قبلاً داخل هياكلها؟ ومتى اضطرت الكنيسة في مُناعه الاكليريكيين من استخدام الأيقونات داخل الهياكل؟

التاريخ المدني والكنسي

القصص التاريخية حول هذا الموضوع تختلف في ما بينها، فهناك من يقول بان الايقونات كانت تستخدم في كنيسة المشرق قبل ظهور الاسلام غير ان الجائليق مار طيمثاوس الاول (728-823) منع استخدامها وذلك بعد الجدل الذي حدث بينه وبين الخليفة المهدي. اذ حكم على الكنيسة ابان تلك الفترة بانها تعبد الاصنام وهذا ما يخالف شرع الله والوصية الالهية التي ذكرت في سفر الخروج "لا تصنع لك منحوتاً"¹. وراء اخرى تقول بان الكنيسة استخدمت الايقونات في الكنائس بالأخص التي لم تكن خاضعة للدولة الاسلامية الى القرن الخامس عشر بعد الغزو الترك-المغولي الذي دمر الهيكل الكنسي لكنيسة المشرق. وهناك رأي اخر يقول بان الكنيسة منذ نشأتها لم تستخدم الايقونات في الكنيسة والدليل بان المجامع الكنسية والتي عُقدت قبل ظهور الاسلام بين 410م الى 676م والتي بلغت 13 مجعاً، ناهيك عن القوانين الابائية، لم تخص اي قانون يقترن بالايقونات. فهل هذا يعني بان كنيسة المشرق لم تستخدم الايقونات داخل البيعات؟

بالطبع الاجابة على هذا السؤال ليس سهلاً اطلاقاً، بالرغم من وجود مصادر دامغة تثبت بان كنيسة المشرق استخدمت الايقونات في كنائسها، وهذا ما سوف نثبتته، غير ان عدم بقاء الشواهد العمرانية الكنسية لا يؤهلنا بتاتاً لإعطاء اجابة مباشرة ونهائية. والاسباب وراء انهيار الابنية الكنسية مختلفة، اهمها هي ان الكنائس الشرقية في المشرق عموماً كانت اغلبها تبنى من الطين، الرمل، المياه، التبن. والبناء الطيني قد يدوم لسنين عديدة لكنه لا يقاوم كالحجر او الطابوق الذي استخدمه الغرب في بناء كنائسهم. وهذا ما تؤكدته، على سبيل المثال، كنيسة الجبيل النسطورية في السعودية. لا يعرف عنها الكثير إلا أنها يعتقد بانتمائها إلى الأسقفيات النسطورية الخمس المعروف وجودها في منطقة الخليج في القرن الرابع .

اما اذا كانت تسمح الظروف لأجدادنا ببناء كنيسة من الحجر او الطابوق، فان الايقونات او الرسومات الكنسية كانت تُرسم على جدران الهيكل. فعلى سبيل المثال، هناك كنيسة تعود للقرن الرابع عشر لاتزال موجودة في مدينة فاماغوستا القبرصية، تنتمي للقسم الشمالي من جزيرة قبرص، اذ يؤكد كبار المؤرخين وعلماء الآثار بانها بنيت على يد رهبان من كنيسة المشرق، ورُسم على جدرانها رسومات للسيد المسيح والقديسين. غير ان هناك شكوك تدفع البعض بالقول بان البناء الكنسي لا يعود لكنيسة المشرق، على الرغم من وجود خطوط واسماء سريانية مكتوبة على الجدار بشكلها الشرقي .

على اي حال، لا اظن وجود الابنية العمرانية من عدمها قد يشكل عائقاً كبيراً يمنعنا من محاولة غربلة المصادر التاريخية لنتمكن من تحديد موقف كنيسة المشرق تجاه الايقونات الكنسية. فكما ذكرتُ اعلاه هناك مصادر تاريخية تثبت بان الايقونات او الرسومات المسيحية كانت تستخدم في كنيسة المشرق. فان قمنا بمراجعة المصادر الكنسية، فسوف نجد فيها قصص تساعدنا للوصول الى الاجابة التي نبحث عنها. والغريب في الامر، ان تلك القصص تكشف لنا ليس فقط وجود الايقونات في الكنائس، بل حتى الاعتراف بان كنيسة المشرق كانت من اوائل الكنائس التي قامت بامتلاك واستخدام الايقونات .

الشواهد التاريخية

(1) رواية ملك ادسا وحنانيا الرسام

تقول المصادر الكنسية، منها تعليم ادي، بان ملك الرها (ابجر) كان مريض فسمع عن اخبار السيد المسيح في اورشليم، فبعث له برسالة عن طريق ساعي البريد حنانيا يساله فيها ان يأتي ويشفيه من مرضه، غير ان المسيح وعده بان يرسل احد تلاميذه ليفعل ذلك. وحنانيا هذا كان ينوي ان يرسم المسيح، غير ان المسيح اخذ منديلاً ومسح وجهه وطُبع عليه واعطاه لحنانيا. وهذ القصة مذكورة في مصادر تاريخية كثيرة، منها يوسابيوس

¹ إن المعنى الحقيقي والجوهري لهذه الوصية واضح فيما قبلها من آيات : "أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية . لا يكن إلهة أخرى أمامي" (خر 20 : 3) لذلك، الغرض من الوصية ألا ينفاد الشعب إلى عبادة غريبة عن الله.

القيصري القرن الرابع، والمؤرخ Evagrius Scholasticus القرن السادس. ويقول يوسابيوس، بان المراسلات بين المسيح وابجر، والايقونة وغيرها من الاشياء كانت محفوظة في خزانة الملك نفسه.

(2) اعمال مار ماري

مار ماري الرسول وهو تلميذ مار ادي الرسول، ويُعتبر البطريرك الثاني بعد مار ادي في سلسلة بطاركة كنيسة المشرق. يروي ماري بن سليمان مؤلف كتاب اخبار فطاركة المشرق، بان مار ماري بعد بلوغه دستمسيان عند بحر فارس، نشر التعاليم المسيحية هناك، وصوّر في البيعة (الكنيسة) صورة السيدة (العذراء مريم) واشخاص ابرار بعد شخص سيدنا (المسيح) لتستثير قلوب المؤمنين برويتها، وذلك على غرار ما فعله السيد المسيح في رساله المنديل الى ابجر وعليه صورته، اي صورة المسيح. ومن هنا يتبين بوضوح بان كنيسة المشرق كانت تستخدم الايقونات في كنائسها منذ القرون الاولى دون ادنى شك .

(3) قاموس حسن ابن البهلول

اما حسن ابن البهلول في قاموسه السرياني- العربية يُشير في صفحة 1426 بان كنيسة المشرق كانت تصور صوراً لمريم العذراء.

(4) مار ايليا الثاني الجاثليق يقول في كتابه اصول الدين هذا القول:

"تأخذ الصور في الكنائس مكان الكتابة. ويختلف شكل الكتابة بين لغة وأخرى. نحن نصوّر الصور في الكنائس، لكي تأخذ مكان الكتابة وبالتحديد لأولئك الذين لا يستطيعون الكتابة أو القراءة، مثل صغار السن أو الأميين. فعلى سبيل المثال، إذا رأى أحد الصورة ويتأملها، لم يعد له الحاجة لطرح الأسئلة حول الموضوع، كالشخص الذي لا يعرف القراءة، غير انه يطلب من شخص آخر أن يقرأ له. والصور في هذه المسألة لها افضلية اكثر من أي شيء اخر. لذلك، نحن نبجل الصور ونقبلها ونكرمها وكله مبني على اساس الاحترام." (الاب تاور اندريوس ص 10).

(5) البطريرك مار دنخا الاول (1265-1281)

يقول كاتب سيرة البطريرك مار دنخا والذي يعتقد ان يكون الراهب يوحنا بأن البطريرك بنى كنيسة في قلعة أربيل، كانت جميلة جدا. ومن اجل هذه الكنيسة، قيل انه انفق كمية كبيرة من الذهب والفضة اذ تجاوزت طاقته. غير انها زينت بصور وأشياء جميلة جداً منها صور التدبير بأكملها لربنا يسوع (منذ الولادة الى الصعود).

(6) البطريرك مار يهوالا الثالث (1317-1281)

يذكر ان بعد رسامته الى درجة المطران انه في احدى الليالي، وبينما كان نائما، حلّما مار يهبالاها حلّماً، كما لو أنه دخل كنيسة كبيرة. وفي الكنيسة، كانت هناك صور للقديسين ومن بينهم الصليب. (الاب تاور اندريوس ص 11).

(7) قصص القديسين

هناك قصص للقديسين تؤكد ايضاً بوضوح بان الايقونات كانت تستخدم في كنيسة المشرق. ففي عهد البطريرك مار يوحنا السابع 1057م هناك قصة حدثت اذ تبين بجلاء بان كنيسة المشرق كان يوجد داخل هياكلها ايقونات مختلفة. وهذه القصة قد رواها القس ابو العلا الواسطي عن ابي الخير المعروف بابن الوكيل قانلاً: "كنت مُقيماً بدير المداين وكان فيه قس شيخ يعرف بـ بختيشوع وكان له ولد شماس معه في الدير وكان هذا الصبي ينزل في الليل الى الهيكل من غير ان يعلم به احد ممن كانوا هناك، فقد كان هذا الشماس يأخذ الصليب والانجيل من على المذبح ويضعهما في بيت الاباء (قد يكون بيت ذخائر الشهداء) ويصلي هناك. غير ان في احد الايام رآه حارس الكنيسة وبلغ الرهبان بذلك. قام الرهبان بمراقبة ذلك الشماس، وفي اليوم التالي بعدما دخل الهيكل واخرج الصليب والانجيل كالعادة، دخل عليه الرهبان وطالبوه بان يُفسر لهم هذا الفعل- لان دخول الشماس الى قدس

الاقداس لم يكن مسموحاً به- فرد الشماس على الرهبان وقال: "لستُ انا بل ان هذا الشخص قال لي ان افعل ذلك، فمد يده الى صورة البطريرك مار اسحاق الموجودة في الهيكل". (راجع ماري بن سليمان ص121).

وفي عهد مار مكيا 1109م يُقال بان شخصاً طبيياً كان يُعارض البطريرك مار مكيا، وفي احد الايام ذهب الى عزاء احد المؤمنين فقيل له بان البطريرك موجود في البيعة (الكنيسة) التي كانت فيها صورة العذراء مريم صلوتها تكون مع الكل.

اما في زمن القديس مار سوريشوع الجاثليق، قيل ان ملك الروم (موريقي) كان له اشتياق غير عادي ليرى القديس مار سوريشوع وذلك بسبب الفضائل وحياة القداسة التي سمعها عنه، فبعث مصورون ليرسموا صورته. غير ان القديس لم يُوافق على الطلب وذلك بسبب تواضعه وعدم اهليته لرسم صورته. وهذا ان دل على شيء انما يدل على ان بطريرك كنيسة المشرق لم يعترض بتاتاً على رسم الايقونات، بل على العكس، جوابه يدل وبوضوح تام ان الاشخاص المؤهلين هم من يجب ان ترسم صورهم.(راجع تاريخ السعدي 2 ص114)

8) في الكتب الطقسية

يوجد في كُتُبنا الطقسية دلائل اخرى تثبت بان الايقونات كانت موجودة ليس فقط في الهياكل ولكن ايضاً في المذابح (او قدس الاقداس). فعلى سبيل المثال لا الحصر في كتاب طقس الكاهن (حالياً كتاب الاسرار المقدسة)، عندما يقوم الاسقف بمسح المذبح، يتطلب منه ايضاً ان يمسخ الايقونة التي فوق المذبح .

اما في كتب الصلوات يوجد في كتاب (الخوذرا) ترتيلاً يُذكر فيها الايقونة بكل وضوح: " كنيسة، يا مخلص، تحمل الخزينة السماوية والثروات في الاسرار التي انت اُعدقتها عليها والتي تستميت منها الملجأ والأمل: الكتاب العظيم عن إعلانك، وخشبة صليبك المسجود له، وجمالاً ايقونتك الانسانية؛ هذه الاسرار العظيمة".

الخاتمة

يوجد ايضاً الكثير من الدلائل التي توضح بان كنيسة المشرق كانت تستخدم الايقونات في الكنائس، غير اننا اكتفينا بنقل هذه المصادر ليتعرف المؤمن بان كنيسة المشرق كانت تستخدم الايقونات في كنائسها اسوةً ببقية الكنائس الرسولية. ما نتمناه من رعاة كنيسةنا المشرقية ان يدرسوا الموضوع بجدية وان يقيموا الابعاد الروحية التي قد تنتج من خلال الايقونات الكنسية. وكما وصفها البطريرك مار ايليا بانها (اي الصورة) في الكنيسة تأخذ مكان الكتابة وبالتحديد لأولئك الذين لا يستطيعون الكتابة أو القراءة، مثل صغار السن أو الأميين. لذلك نتمنى بان نرى الايقونات مرة اخرى داخل كنائسنا .